**المحاضرة الثانية**

**النقد في صدر الإسلام**

استمر النقد الأدبي في صدر الإسلام فطريا بسيطا لا يعدو أن يكون إعجابا بشاعر أو تفضيلا لشاعر على آخر أو آخرين، أو استحسانا لبيت أو تصويبا لمعنى من المعاني؛ فقد بقي مقتصرا على الأجزاء لا يتعداها، وإذا توسع في الحكم وعلّلَ لم يستقصِ كل الجوانب بل عمم دون تعليل.

**النبي صلى الله عليه وسلم والشعر: موقفا وتذوّقا**

لقد أثار الإسلام حركة مستمرة من الصراع في عالم الأفكار وعالم الأحداث مع المشركين؛ فكان أن اندمج الشعر والشعراء في هذا الصراع، وأصبح للشعر رسالة ينفخ فيها الإسلام من روحه ويرمي بها النبي عليه الصلاة والسلام في خِضمِّ المعركة، وكان هذا الاندماج سببا في بروز ظواهرَ نقدية تمثلت في ما أُثر عن النبي صلى الله عليه وسلم من مواقف من بعض الشعراء توضح نظرة الإسلام إلى بعض شؤون الشعر من حيث مضامينُه، وفي أحيان قليلة نظرته عليه الصلاة والسلام إلى الشعر من حيث شكله وتأثيره.

فمن حيث المضمون يُروى أن النبي صلى الله عليه وسلم أُنشدَ قول عنترة:

ولقد أبيتُ على الطوى وأظلُّهُ حتى أنال به كريمَ المأكلِ

فقال عليه السلام: "ما وُصِف لي أعرابيٌّ قَطُّ فأحببت أن أراه إلا عنترة"

ويروى أنه -عليه الصلاة والسلام- أمر حسان بن ثابت وهو في سفر أن يحدو (يُنشد الشعر لتسير على وقعه الراحلة)، فلما فرغ من نشيده قال: "لَهذا أشدُّ عليهم من وقع النبل".

وهذان الأثران لا يمثلان نقد الشعر في تفصيلاته الشكلية بل موقفا للإسلام من الشعر بعدّه وسيلة فعالة للتحفيز على مكارم الأخلاق كما عند عنترة، أو المشاركة في الكفاح والتأثير في نفسية العدو كما عند حسان؛ فهو موقف عامٌّ من المضمون وإن كان يتضمن حتما موقفا من الشكل ما دام الرسول عليه السلام تأثر به فحكَمَ له نتيجة استحسانه وتذوّقِه.

أما من حيث الأسلوب فقد رُوي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: أمرتُ عبد الله بن رواحة فقال وأحسن. وأمرت كعب بن مالك فقال وأحسن. وأمرت حسان بن ثابت فشفى واشتفى. وهذا الموقف يتضمن حكما لصالح حسان بن ثابت بالإجادة المتجاوزة حد الإحسان إلى الشفاء؛ وهو أمر يرجع إلى الأسلوب لا المضمون وحسب.

ومع أن الإسلام قد جاء بأكمل منهج للحياة وأرقى منظومة للأفكار والقيم والمقاييس والمشاعر والأخلاق، فإن ذلك لم يستدع أن يبلغ النقد على يد نبيه صلى الله عليه وسلم أو خلفائه وصحابته مراتب النضج والعمق والاكتمال، لأن الإسلام لم يكن من شأنه أن يتولى في مرحلة متقدمة من الزمن تطوير كل العلوم وتفصيلها لتبلغ حد كمالها، وإنما كان شأنه أن يوضح للناس أصول عقائدهم ومنهاج حياتهم وأسس بناء حضارتهم ليتولوا هم بأنفسهم إعمال عقولهم في شؤون دنياهم ليكتشفوا أسرار الكلام والطبيعة والنفس والاجتماع.

لذلك لم تكن علاقة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشعر علاقة الناقد الممحِّص المستقصي الحريص على توضيح مظاهر جودته أو رداءته، وإنما كانت علاقة المُنَظِّر –بِوَحي الله- لحُكمه ورسالته فقال: "إنما الشعر كلام، فحَسَنه حسن وقبيحه قبيح" (وهو حكمٌ على مضمونه لا أسلوبه). وقال: "لا تدع العرب الشعر حتى تدعَ الإبل الحنين" (وهو تقرير لفطريته وتأصّله في قلوب العرب). ووجَّهه في الحياة الواقعية إلى قول الخير ومكافحة العدو. وكانت علاقة المتذوّق الذي يسمع الشعر فيطرب له ويعجب به ويُعبّر عن ذلك قولا كما في الأمثلة السابقة وكما في قوله بعد أن أنشده النابغة الجعدي:

ولا خيرَ في حِلمٍ إذا لم تكن لهُ بوادرُ تحمي صفوَه أن يُكدَّرا

ولا خيرَ في جهلٍ إذا لم يكن لهُ حليمٌ إذا ما أوردَ الأمرَ أَصدَرا

"أجدتَ، لا يفضُضِ اللهُ فاك"

فهذا استحسان وإعجاب عفويان لم يكن الرسول عليه السلام مطالَبا بتعليلهما، وإنما هو الذوق الرفيع الذي يستحسن الكلام كُلّا متكاملا معنى وأسلوبا؛ فلا شك أن للبيتين إذا أخضعناهما للتحليل اللغوي والأدبي أسرارا بلاغية يديعة.

وكان أحيانا يعبّر عن هذا الإعجاب بقوله تعليقا على من ألقى عليه كلاما متعارضا في شخص واحد، بالمدح مرة وبالذم أخرى مع صدقه في كليهما: إن من البيان لسحرا. وهو رأي في صميم النظرية الأدبية التي تقول بقيام الشعرية على عملية الإيهام أو التعجيب أو الحيلة، وهو ما يشبه السحر؛ وهي مسألة شكلية لا علاقة لها بالخلق.

**نقد الخلفاء الراشدين**

بعد الرسول صلى الله عليه وسلم كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه كما يصفه ابن رشيق "أنقَدَ أهل زمانه للشعر وأنفذَهم فيه معرفة"، وبه خطا النقد الأدبي خطوة متقدمة نحو التعليل، حين أجاب على سؤال ابن عباس رضي الله عنه: وبمَ كان زهير عندك شاعرَ الشعراء؟ "لأنه كان لا يعاظل في الكلام، وكان يتجنب حوشيّه، ولم يمدح الرجل إلا بما فيه".

لقد كان تعليله هذا ممارسة ناضجة للنقد الحقيقي الذي يتناول الخصائص الشعرية صياغةً ومعنى وموقفا؛ ففي الصياغة علّل الاستجادة بالخلوّ من العيوب الكلامية من تعقيد في التركيب وخشونة وإغراب في اللفظ، وفي المعنى والموقف عللها بعدم الإحالة والمبالغة، بمعنى تحرّي الاعتدال والصدق في القول. وهي مقاييس لها امتدادها في تاريخ النقد الأدبي إلى الآن حيث لا يزال كثير من النقاد يستهجنون التعقيد والإغراب في اللفظ، ويذمون شعر المبالغة الناجمة عن التكلف والافتعال والتهويل المجافي للصدق. ولكن رأي عمر رضي الله عنه كان رأيا فطريا لم يقصد الدراسة والتعمق في التحليل، فهو صادر عن ذوق وطبع وارتجال.

ونحسب أن داود سلوم في كتابه "مقالات في تاريخ النقد العربي" قد أساء فهم موقف عمر حين عدّه موقفا أخلاقيا صارما من الشعر شبيها بموقف أفلاطون. بل جانبَ الصواب واللباقةَ حين قال: "إن موقف عمر لم يكن يمثل موقف الإسلام المتسامح بمقدار ما كان موقف المسلم المتزمت". وعدّ موقفه فرديا وذوقه بدويا، فتعليله السابق ليس مجرد موقف أخلاقي بل هو ذوق جمالي إنساني، وموقفه السمح من الشعر وتقديره الكبير لشأنه، إحساسه الرهيف برقته ومعانيه الإنسانية واضح تفيض به الشواهد النقدية المأثورة، كما في قوله لبعض ولدِ هرم بن سنان الذي مدحه زهير فكافأه بالمال: "قد ذهب ما أعطيتموه وبقي ما أعطاكم." وقوله لمتمّم بن نويرة حين أنشده –بطلبه- قصيدته البديعة في رثاء أخيه: "يا متمّم، لو كنت أقول الشعر لسرّني أن أقول في زيد بن الخطاب مثل ما قلتَ في أخيك." وكذلك تحوّطه في معاقبة الحطيئة حين أقذعَ في هجاء الزبرقان، ثم رقّته له بعد اضطراره إلى سجنه حفاظا على أعراض المسلمين لسماعه أبياتا رقيقة للحطيئة في الشكوى والاعتذار، فخلّى سبيله ونهاه عن الهجاء؛ فكل هذا يكشف الموقف الحقيقي لعمر رضي الله عنه من الشعر؛ ولكن داود سلّوم لم يميّز بين موقف عمر الخليفة المسؤول عن أعراض المسلمين، وموقف عمر الإنسان المسلم المتذوق للشعر من الموقعين كليهما: موقع الإنسانية وموقع الإسلام.

بعد خطوة عمر النقدية كان لعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه خطوة أخرى لها أهمية بالغة، إذ تتعامل مع الشعر والشعراء وفق رؤية نافذة ناضجة عادلة تضع الأساس المحكم للنقد الموضوعي المتحري للعلمية والنزاهة؛ وذلك عندما طُلب منه الرأي في عدد من شعراء الجاهلية والإسلام فتضمنت أجابته قوله:

-كل شعرائهم محسن.

-ولو جمعهم زمان واحد وغاية واحدة ومذهب واحد في القول لعلمنا أيهم أسبق إلى ذلك.

-وكلهم قد أصاب الذي أراد وأحسن فيه.

-وإن يكن أحدُهم فضَلَهم فالذي لم يقل رغبةً ولا رهبةً امرؤ القيس بن حجر فإنه كان أصحّهم بادرةً وأجودَهم نادرة.

إن عبارتيه الثانية والرابعة تقدمان منهجا ومقياسا أقرب ما يكونان إلى الموضوعية في الموازنة بين الشعراء وتفضيل بعضهم على بعض؛ منهجا لا يجوّز المقايسة الاعتباطية بين شاعرين من عصرين مختلفين، أو المقارنة بين شاعرين انصرف كل منهما إلى غرض خاص به أو موضوع مغاير في عصر واحد، ومقياسا يجعل التفضيل يقوم على أسس نفسية وشكلية معا، حيث بنى تفضيله لامرئ القيس على أساس فكري أو نفسي هو اعتبار الدافع الشعري الخالص الحر طريقَ الإبداع الحقيقي والإجادة الخالصة؛ ذلك أن الشاعر الذي يقول رغبة أو رهبة قد تُعجِزه هذه القيود عن التفكير السوي والإجادة في التعبير وإصابة الحقيقة الفنية الإنسانية، فيضطره الموقف إلى قول ما يريده الآخرون لا ما يريده ذوقه وفنه وتجربته. وأتبع هذا المقياس الفكري بمقياس شكلي أسلوبي عبّر عنه بعبارة مركزة قيّمة الدلالة (كان أصحَّهم بادرة وأجودَهم نادرة)، ومدلول العبارة أن أحسن الشعر ما كان صحيحا مصيبا في طبعه وصياغته ومعناه، وكان بديعا مُعجِبا غريبا نادرا غير مكرور، فهو يلفت النظر ويثير الأفهام بجودته وجِدّته.

والعبارتان الأخريان تنصفان الشعراء على اختلاف أغراضهم في القول ومذاهبهم في الأدب؛ فكلّهم محسن في غرضه ومذهبه، وللناس أذواقهم وأمزجتهم وتجاربهم التي تجعلهم يستحسنون هذا الغرض أو ذاك ويميلون إلى هذا المذهب أو ذلك.

**خلاصة النظرية الشعرية في صدر الإسلام**

يمكن تلخيص المبادئ النقدية التي أرساها نقد الشعر في صدر الإسلام كما يأتي:

**مهمة الشعر:**

أعلى الإسلام من شأن الكلمة البليغة الطيبة ذات الأثر البليغ النافع في حياة الإنسان وحال المجتمع والأمة، فاحتفى بالشعر الذي يصب في هذا الاتجاه أيما احتفاء، وبقي الشعراء طبقة راقية رائدة في المجتمع، ينصرون الدين الجديد والفكر الجديد والقيم الجديدة، وينشرون بأسلوبهم الخاص مكارم الأخلاق.

يدل على ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: "ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم." واتخاذه عددا من الشعراء أولهم حسان بن ثابت شعراءَ للدعوة الإسلامية ينافحون عن رسول الله فينصرون دعوته ويهجون أعداءه، معتبرا ذلك أشدَّ على المشركين من وقْعِ النَّبل، وقولُه في شأن الشعر: "إن هذا الشعر سجعٌ من كلام العرب، به يؤتى السائل، وبه يُكظم الغيظ، وبه يؤتى القوم في ناديهم." كما يدل عليه شدة احتفاء عمر بن الخطاب بالشعر وحثه على تعلمه وتحفّظه كما هو بارز من قوله: "تحفّظوا الأشعار وطالعوا الأخبار فإن الشعر يدعو إلى مكارم الأخلاق، ويُعلّم محاسن الأعمال، ويبعث على جليل الفعال، ويفتق الفطنة، ويشحذ القريحة، وينهى عن الأخلاق الدنيئة، ويزجر عن مواقعة الريب، ويحضّ على معالي الرتب."

**الشعر فاعلية نفسية**

دلّت آية الشعراء في القرآن الكريم ((وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ۝ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۝ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ)) على أن علاقة الشعر بالمتلقي هي علاقة سحر وإغواء. كما دلت عبارة النبي صلى الله عليه وسلم وأمرتُ حسان بن ثابت فشفى واشتفى على أن وظيفة الشعر هي التأثير الوجداني. وإذ وردت هذه العبارة في سياق تفضيله شعر حسان على شعر زميليه عبد الله بن رواحة وكعب بن مالك على إحسانهما، فقد دل هذا على أن أكثر الشعراء إجادة هو أعظمهم تأثيرا في النفوس.

**فصل الحكم الجمالي عن الحكم الديني**

يظهر من اتفاق النبي عليه الصلاة والسلام مع خليفتيه عمر وعلي رضي الله عنهما في الاعتراف بتفوق شاعرية امرئ القيس مع كونه مشركا ماجنا، أن الإسلام لا يشترط في جودة الشعر الفنية جودة أخلاقية دينية، بل يفصل بين الأمرين فيحكم على كل أمر وفق شروط تخصه، ومن هنا كان امرؤ القيس في حكم النبي عليه السلام –إن صحَّ ما روي عنه- رفيعا في الدنيا وضيعا في الآخرة؛ فما الرفعة هاهنا إلا إشارة السبق والتفوق في مضمار الشاعرية.

**الإشادة بالسبق والصدق واعتمادهما معيارا جماليا**

يظهر من مواقف النبي عليه السلام وخليفتيه عمر وعلي من الشعر والشعراء أنهم يقدّرون للشاعر سبقَه إلى إبداع الصور البليغة والمعاني البديعة، وصدقه في التعبير عن المشاعر والأفكار ووصفه للرجال والأحداث. يدل على ذلك إعجاب النبي عليه السلام بقول حسان في شأن أبي بكر خلال هجرته مع النبي صلى الله عليه وسلم:

وثاني اثنين في الغار المنيف وقد طافَ العدوُّ به إذ يصعدُ الجبلا

وكان رِدفَ رسول الله قد علِموا من البريّة لم يعدِلْ بهِ رَجُلا

وتعليقه على البيتين بقوله: صدقتَ، هو كما قلت. وكذا قوله مُشيدا بفضيلة الصدق: أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد: ألا كلُّ شيء ما خلا اللهَ باطلُ.

كما يدل عليه تعليل عمر لتفضيله زهير بن أبي سلمى، وتعليل علي لتفضيله امرأ القيس.